

لا شك ان النخبة هي المفصلة دوماً عن مقام المجتمع ، وان قيمة الشعوب لا تقاس بمتوسط مستوى الناس فيها بمقدار ما

حول كتاب «مشكلة النخبة في الشرق»

تعاليم عبد الله عبد السلام

ومن خلال جسدها تنطلق دوماً رعشة الجمال والخير ، فتسيطر على من حولها وتشيع فيهم هزة كريمة مبدعة .

تقاس بعدد الأفراد النابزين الأفاضل الذين يمثلون الصفوة بينها . ففي هؤلاء الأفراد تتجسد مطامح الأمة وصبواتها ، وعندهم تصدر اندفاعة المجتمع نحو مستقبل اكمل . وهم الذين ينتشلون امتهم من روح المحافظة التي تسيطر على سواد الناس ، ويقذفون بها في طريق التجديد العميق مرهصين بما ستؤول اليه تلك الامة ، متحسسين بالتيارات الحفيدة التي تضطرم في اعماقها ، مسررين بزوغ هذه التيارات .

وكثيراً ما تلخص حياة الامة كلها في هؤلاء الافراد القلائل ، وكثيراً ما ترتد عبقريتها كلها إلى فرد او أفراد . والذي خلق التاريخ وخلق الأمم ، كما نعلم ، هم هؤلاء القلة . إنهم قلة في عددهم ، ولكنهم فيما يحملون من آمال الجمهور وتطلعاته كثرة غالبية . وقد يجيئهم الجمهور احياناً ، ولا يرى كيف يمثلون حقيقة حاجاته ، ولكنه ما يلبث حتى يلمس سرهم ، فيندفع إثرهم .

وأقوى ما في هذه النخبة انها تظل الحافظة الامينة للقيم الفكرية والحلقية العالية . فهي تخلص هذه القيم حين يكفر بها اكثر الناس ، وبهذا تربي هؤلاء الناس كيف يعيش المثل الاعلى وكيف يخلق كبار النفوس ، وتجعل من القيم الرفيعة شيئاً ذا كيان وجسد ، لا مجرد آمال واحلام ... وعن هذه الطريق تحول بين عامة الناس وبين التنكر لهذه القيم ، وتجعلهم لا يقدمون على انتهاكها إلا وهم أذلة صاغرون . فهذه النخبة عيون رائعة ترمق الناس في سرهم وعلايتهم ، فتحبسهم عن الشر وتدنيهم من الخير .. وهي امل باسم يفي المخلصين من الناس بما ينتظرهم من رتبة العظماء ومقامات ذوي النفوس الكبيرة .

ثم ان تذوق المعاني الفكرية والروحية العميقة لا تتأتى للجمهور إلا عن طريق هذه الصفوة . فهي إذ طعمت ، تعرف كيف تنقل ما طعمت الى غيرها .. وهي إذ رأت وأبصرت ، تعرف كيف تنثر ، بمجرد وجودها ، ما رأتها وأبصرته .. إنها صاحبة اذواق. وإن احاسيسها لنضاحة بهذه الانسانية الكبرى ..

عن مثل هذه الصفوة يتحدث الشاعر الكبير سعيد عقل في كتابه «مشكلة النخبة في الشرق» . ومن خلال حديثه عنها تتجلى معاناته الحية العميقة لحياة هذه النخبة . ومن خلال كلماته يقرأ القاريء ما يملكه رجل النخبة من توفز ونظرة إنسانية رحبة مطلعة ، تجعل معرفته وخلقه «في مستوى المصائر الكبيرة» . إنه يبين لنا قبل كل شيء ان النخبة هي من لا يوجهها القدر ، بل توجهه . فهي لا تستقبل الوجود ، وإنما تقصده . وهي لا تقف من العالم موقف المنفعل القابل ، بل تفعل فيه وتشعر بانها هي المسئولة عن مصيره . وهي التي ترفع الناس عن مستوى الصغائر ، وتقودهم الى « المناخات العلى » ، وتمدّم « بنبل العلم وبالفكر الكبيرة » . لأنها بعيدة عن « الاثرة والانكفاء على الذات » ، شاعرة بجرمتها ؛ وشعورها بجرمتها هذا هو « كل حيويتها » ، وهو « السياج الذي يصون العالم من إغراء المال يلوح به اصحاب الاعمال الكبيرة » . وتاج اعمالها « ان تنادي بين فترة واخرى إلى التمرس بعمل ضخم يجيء في مستوى القضاء والقدر » .

ويبين الشاعر ان الخلاص من الاخطار الكبيرة التي تواجه الامة ، من مثل خطر اسرائيل ، لا يكون إلا بهذه النخبة . وما مأساة فلسطين إلا نتيجة لانعدام هذه النخبة التي كان في وسعها وحدها ، لو وجدت ، ان تعد منذ اربعين سنة لمواجهة خطر الصهيونية . وهو يفرق بين النخبة والحزب تفريقاً جوهرياً . لأن الحزب عمل سياسي ويتطلب الحكم بالتالي .. بينما تظل النخبة « اكبر من تطلب الحكم واكبر من الحكم » . « فتسلمت زمام الحكم مشوب ، وإن قليلاً ، بشهوة السلطة ، والنخبة فوق الشهوة وفوق السلطة » . ولا يقوده هذا التفريق إلى محاربة الحياة الحزبية ؛ بل يرى ان اصطراع الاحزاب ، في بعض المراحل «خير طريقة لشفاء قوى الشعب المصابة ريثما نضج فيها العافية» . غير انه يرى ان « الحزب ينفي سواه ، والنخبة تلهم سواها » . واجمل ما في هذا التفريق عنده حديثه عن

الأحزاب التي انتهجت سبيل العمل الحزبي ، وظل قوادها مع ذلك متحلين في قرارة نفوسهم بمناقب النخبة . فكلنا يعلم الصراع الذي يثور في نفوس هؤلاء القواد بين طبيعة العمل السياسي التي تجر إلى الخسومة ، وبين صفات انبناء النخبة التي تأبى ان تحارب الاشخاص وتكتفي بمهاجمة الشر فيهم . وكلنا يعلم كيف يُضطر هؤلاء القواد أحياناً - إن سلكوا هذه السبيل ، سبيل العمل الحزبي الذي تغذيه روح النخبة وخصالها - إلى خيانة العمل الحزبي ، لأنهم يخسرون المعركة مع خصومهم ولا يصلون إلى الحكم ، رغبة منهم في الوفاء للعقل والانصاف والحق .

والحق أن الكاتب يلمس هنا مشكلة عميقة تواجه الجيل العربي المخلص عندنا .. فهذا الجيل يبدأ حياته مخلصاً للقيم الخلقية والفكرية السامية ، متحملاً بأعراق النخبة . ولهذا يكتفي في بدء حياته بان يكون فوق الخصومات وفوق العمل الحزبي المباشر ، ولا يجاوز موقف الموجه المبشر بالمعاني النبيلة .. ولكنه ما يلبث حتى يجد نفسه محكم موقفه النبيل هذا نفسه ، مضطراً الى تنظيم توجيهه هذا تنظيماً عملياً أكثر جدوى ونفعاً . إذ يرى ان لا سبيل الى فرض اخلاق النخبة ومطالبها إلا عن طريق تكوين صف نضالي يحوض الحياة العامة ولا يبقى على هامشها ، وينخرط في العمل السياسي بالتالي .. غير انه يريد هذا العمل السياسي عملاً من نوع جديد ، تنسجم فيه المبادئ مع اسلوب تطبيقها ، وتظل القيم الخلقية والفكرية رائده وموجهه ، ويظل مترفعاً عن الأهداف الشخصية والغايات العاجلة .. وهو ، إذ ينتهج هذا الأسلوب ، اسلوب العمل السياسي المخلص لمبادئ النخبة ، يجد نفسه عاجزاً عن فرض وجوده السياسي ، مقصراً عن الأحزاب النفعية القائمة على الخصومات والمهارات .. وهنا يتنازع اتجاهان : إما ان يسلك سبيل العمل السياسي المباشر ، سبيل سائر السياسيين ، فيتخلى عن مبادئ النخبة ويصل الى الحكم ، ويبرر عمله هذا بانه عمل عملي ضرورة تحقيق الأفكار التي آمن بها . وإما ان يظل في طريقه الأولى ، يعمل باسلوبه السياسي الجديد المحمل بعقيد المبادئ والقيم الرفيعة ، ويحجم عن انتهاج الأسلوب السياسي العادي المؤدي الى النجاح والحكم . وإذ ذاك قد يشعر بانه يحكم على مبادئه نفسها بالعقم ، وعلى قيمه بان تبقى بعيدة عن التحقيق ، ما دام لم ينتهج سياسة الوصول الى حكم يحقق فيه غاياته ، وما دام لم يستبج لنفسه ان يجعل الوصول الى الحكم ، باي وسيلة ، امرأ جائزاً تبرره الرغبة في تحقيق المبادئ

والأهداف عن طريق الحكم . والذي يريد ان نقوله بهذا الصدد هو ان هذه المشكلة التي تواجه الجيل العربي الواعي ليست عصية على اي حل ، وان الموقف السليم لا يكون بان تعزل النخبة في أبراج النخبة ، كما لا يكون بان تتخلى النخبة عن مبادئها واهدافها منتهجة اسلوب السياسة الناجحة العاجلة .. فالمشكلة واقعة مستعصية على الحل حين لا يملك هذا الجيل النفس الطويل ، وحين لا ينظر النظرة البعيدة ، زاهداً بالربح العاجل في سبيل ربح آجل ، بغيث ولكنه مضمون ، قد لا يلقاه هو وتلقاه امته من بعده . اما إذا تخلص هذا الجيل من نزق المطالبة السريعة ، وعلم ان نجاح النخبة في عملها السياسي لا يتأتى إلا بعد مراحل طويلة في حياة البلاد ، وبعد بناء هاديء واسع طويل الأمد ، فعند ذلك يتخلص في الوقت نفسه من هذا الصراع المتأزم في نفسه بين الاتجاهين اللذين ذكرنا : اتجاه العمل السياسي المباشر ، واتجاه العمل بروح النخبة ، بعيداً عن العمل السياسي .

والواقع ان بقاء النخبة في جوها الصافي ، بعيدة عن الحياة السياسية الكدرة القائمة ، خيانة لرسالتها ، ونوع من الترف يجعلها تفضل البقاء في صفوها ، ولو كان هذا البقاء عقيباً ، على التزول الى معترك الحياة الواقعية الدامية . وليس أجمل حقاً من ان يعتزل رجل النخبة في جوه الروحي العبق ، متعالياً على كل شيء : ولكن الجمال شيء ، والواجب شيء آخر . وعبث ان يبرر مثل هذا الرجل موقفه بأنه يقدم ، عن طريق اعتزاله هذا ، خدمات لا يقدمها عن غير هذه الطريق : فمثل هذا القول يظل تبريراً وادعاءً وفلسفة للتخاذل ، وليس واقعاً .

إن براعة الفكرة تتجلى بأن يستطيع صاحبها ان يقبلها الى عمل . وقوة رجل النخبة ينبغي ان تتبدى في قدرته على ان ينظم قيمه وافكاره في اسلوب عملي يشيعه بين أكبر عدد ممكن من الناس . ولا معنى للفكرة إن لم تكن قوة ، قوة موجّهة حقيقية . ومجرد إشعاع الفكرة من بعد لا يهب لها كامل قوتها وإمكانياتها ولا يمكن ان تعطي هذه الفكرة كامل قوتها إلا إذا نُظِّمَ نشرها وإذاعتها . وتنظيم هذا النشر وتلك الاذاعة هو العمل السياسي عينه ، إذا فهم كما تريده النخبة . وهذا لا يعني ان المسألة ليست دقيقة وصعبة ، وان الانحدار من مثل هذا العمل السياسي الموجه بروح النخبة الى العمل السياسي التافه ليس خطراً صعب الاجتناب . ولكن مهمة النخبة ، قبل غيرها وقبل أي شيء آخر ، هي ركوب مثل هذه

لنا والراهب

[هذه القطعة من وحي وحدتي كل مساء . إن امام بيتنا في مدريد ديراً ، وفي كل مساء يخرج راهب الى سطح الدير امام نافذتي حيث اربق الغروب الرائع . يخرج هذا الراهب ومعه كتابه او إنجيله . ويصلي الى ان يحيم الظلام على الحي .]

هو الله يغريك يا راهبي
وعن روعة الشمس سالت دماً
وجدتك مثلي كل مساء
تصلي لربك مستلماً
وأشكو لربي من عاصف

وفي خافقي ثورة لا تكن
وكم صغت بالوهم يا راهبي
وعشت باحلام قلب جريح
واني وإن أوحدتني الليالي
ونحلت اغاريد قلبي نواحاً
فقلبي سيقى رفيع المنى
رأيتك تحشى عليك لحاظي
اما اسطعت بعد المراس الطويل
آدم آدم في كل درب
يخاف الغواية ... يا ضعفه
رويدك لا تحش من فتنة
فقلبي طفل بريء الهوى
ولكن بروحي حنين الى
عسى يطمنن فؤادي ونجوى
كلانا وحيد . فيا وحشتي
ويلهو بمدريد احبابنا
ولو شئت حامت على فمتني
أغالب منهمن أسى القلوب
وفي الشام عين انا حملها
وفي الشام قلب انا نوره

يشع على املي الخائب
وحيدين في المغرب الشاحب

سليم الخضراء الجيوسي

مدريد

المواقف الدقيقة الصعبة وحسن قيادتها . ومتى كان الموقف الصحيح مبسّراً سهلاً؟

وهل تأتي غلطة الشاعر في كتابه هذا ، حين يورد بعض الافكار التي لا نقره عليها ، إلا بسبب هذا الانزال الذي تعيش فيه النخبة احياناً ، والذي يحملها على ألا تحسن فهم واقع حياة امتها ، وعلى ان تعالج الامور معالجة من لم ينزل الى واقع هذه الأمة ، وبقي في مفاهيمه المجردة وأفكاره الميئنة ؟ إنه يبيّن مثلاً ان « الصهيونية ، منذ ان تأسست ، انطوت طبيعياً على نحو لبنان » ، ويعتبر هدف الصهيونية لبنان من دون سائر البلدان العربية . ويورد بعض الحقائق التي لا ننكر بعضها ، وإن يكن أكثرها مضطجعاً . فسائر البلدان العربية الاخرى ، فيما يرى ، « إما صفر من المياه ، وإما ذات مياه اجنبية المنبع - إلا لبنان .. » وجميعها ، إلا لبنان ، واقعة من الكرة تحت الدرجة الخامسة والثلاثين من خطوط العرض ، مما يجعلها بعيدة عن ان تكون مركزاً للمدينة . « فلا ينابيع قومية إلا في لبنان ، ولا مناخ ملائم إلا في لبنان »؟! وسماء لبنان تمطر سبعين بالمائة من مجموع امطار البلدان العربية!! وهنا نسائل : متى كانت الظروف الطبيعية المادية وحدها هي التي تكوّن الأمم وتخلق الحضارات ؟ أو ليس الانسان هو المتحكم في الطبيعة ؟ أو لم يقبل الصغارى الى سهول ، ويطلق المياه حيث لا مياه ، ويقير وجه الأرض كما يشاء ؟ أو ليس تاريخ الحضارة الانسانية هو تاريخ تغلب الانسان على الطبيعة والأرض والمناخ ؟ وهل يجوز الحديث عن أثر البيئة الجغرافية في عصر سادت فيه الوسائل التكنيكية القادرة على الهزم بهذه البيئة؟ وهل صحيح بعد ذلك ان لبنان وحده يتمتع بهذه الشروط المادية الملائمة ؟ وهل يفكر الصهاينة في مياه لبنان دون ان يفكروا في بتروال العراق والجزيرة مثلاً؟ وهل في وسع لبنان ، قبل هذا وفوق هذا ، ان يقاوم الصهيونية منفرداً ، ناسياً تكتله مع سائر ابناء الأمة العربية ؟ أو ليست مهمة النخبة ان تخلق هذا الوعي العربي الجامع الذي يستطيع وحده ان يقف مدافعاً مكيناً ؟ وابن تعيش القيم الفكرية الرفيعة والمعاني الروحية العميقة التي تثور في نفوس النخبة ، إن لم تعش في الدعوة الى كيان قومي عربي سليم ، يستطيع وحده ان يجابه شتى الآفات التي تكتنف الامة العربية ؟ إن الكتاب نفسه يبين خير بيان ان الحرب قائمة بين العلم والعاطفة ، وان مهمة رجل

- النعمة على الصفحة ٦٩ -

« مشكلة النخبة في الشرق »

- التتمة من الصفحة ٦ -

الشرق « ناجم عن كونه اهم ، منذ فجر النهضة السياسية ، للضم أكثر منه للتكثيف ، لتوحيد الأقاليم أكثر منه للتمدين . وهكذا يستعيز عن القومية الحقيقية بالمواطنية ، مواطانية اللبناني للبنان مثلاً .. وينسى ان كل مشكلات العرب ، لا نصفها ، ناجم عن محاولة كل قطر من اقطار العرب ان يحل مشكلاته على انفراد ، متناسياً ان لا سبيل الى الخلاص من الاستعمار ومن الأوضاع الاجتاعية الفاسدة إلا عن طريق العمل العربي الموحد ، وأن القضاء على أي واحدة من هذه المشكلات في قطر واحد امر مستحيل إذالم يرافقه القضاء عليها في سائر الوطن العربي . فمشكلة البلاد العربية واحدة ، والعمل على الخلاص منها لا يكون إلا وفق اسلوب موحد . وإذا لم تتكفل الفئة النضالية الواعية في مختلف ارجاء البلد العربي ، ولم تنتشر في كل جزء من اجزائه ، يستحيل على الانقلاب الاجتماعي ان يبلغ شاطئ الأمان وأن يتحقق في أي قطر عربي .

ويحسن الكاتب كثيراً حين يتحدث عن معضلة تعهد المعرفة الشعبية ، وحين يبين ان « إيجاد التفاهم بين العامة والخاصة لا يتم بحال من الأحوال بإنزال هذه الى مستوى تلك ، بل برفع تلك الى مستوى هذه » ، وحين يحمل على « الدلعة الديمقراطية » التي عودت العامة ان تسيرهم الخاصة . كما يجيد حين يعرض لمشكلة القدرة على الطموح . وحين يبين ان « افتك ما يضعف الشرق اليوم ادعاء جبناء المأمل بأنهم هم الواقعيون ، وتعريضهم بذوي الطموح الضخم » ، وحين يقول قولته : « لن يوفر للشرق حتى اقل متطلباته إلا من سينتدبه الى المتطلبات الكبيرة » .

وبعد ، لنا ان نتساءل اخيراً : لم يعتبر المشكلة « مشكلة النخبة في الشرق » ؟ وماذا يعني الشرق عنده ؟ وهل ما يقوله ينطبق فعلاً على جميع بلدان الشرق ، ولا ينطبق إلا على بلدان الشرق ؟ وفيم الاحجام عن ذكر كلمة « عرب » ؟ أفلا تحمل هذه الكلمة معنى واقعياً حياً ؟ وهل إلى إنكارها او التكرار لها من سبيل ؟ حقاً إن الصراع الذي يواجه النخبة هو الصراع بين العقل والعاطفة . فهل لهذه النخبة ان تتحدى ذواتها وتتحدى رواسيها ، وتنظر إلى الأمور نظرة رائدها العقل والواقع ؟ وهل لها ان تولد ولادة جديدة ؟ إن اعدى اعداء تكون النخبة ان تنساق هذه مع غرائزها ، دون ان تحاول ان تجلو هذه الغرائز بنور العقل وبمجاهدة النفس .

دمشق عبد الله عبد الدائم

النخبة ان يقف شجاعاً في جانب الحقيقة . وما نحسب الحقيقة في جانب هذا التأليه للبنان ، وورده الى اصول غريبة عنه ، وفصله عن الحضارة العربية التي سادت فيه منذ القديم .. وهل الموجات التي غزت لبنان قديماً ، وعلى رأسها موجات الفينيقيين ، إلا موجات عربية فاضت من جزيرة العرب منذ أقدم الازمنة ؟ على اننا مع الكاتب تماماً عندما يتحدث عن بعض المعضلات التي ستحدى نخبة الغد . فهو يبين ، في عمق ونبالة ، ان من المعضلات التي تواجهها هذه النخبة إعادة الثقة بالعقل البشري ، وان منها استعادة الكرامة البشرية ، وان منها مشكلة الصراع بين مصالح الحاكم الخاصة وبين مصالح الامة التي أوثمن عليها .. وهو إذ يطرح مشكلة القومية (او مواطانية الامة ، كما يقول) والانسانية (او مواطانية العالم) ، يحسن حين يبين ان القومية لا تشتمل على معنى الاثرة واعتبار البغضاء اساس البقاء ، وأن العالمية لا تشتمل بدورها على التهرب من التزامات الانسان نحو الآخرين ، ولا تعني الذوبان « في كلامية تدمر الثقة بما يرتسم على الأفق من وحدة العالم » . وهو بهذا يشير الى المفهوم الصحيح للقومية : فالقومية لا تعني العصبية والغلبة ؛ وبهذا تنسجم مع الفكرة الانسانية العميقة ، ما دامت إنسانية الانسان لا تزهر ولا تتفتح إلا في تربته القومية . غير انه يريد ان يفهم من مواطانية الامة معنى ضيقاً ، ويخاف في نهاية حديثه عنها ان يجعلها والقومية العربية سواء ، مناقضاً مرة اخرى روحه العالمية التي يحرص عليها . إنه يعتبر ان نصف مشكلات

صدر حديثاً كتاب

تحت قناطر ارسطو

بقلم امين نحد

يباع بجميع المكتاتب - الثمن ٢٠٠ غ

نشر وتوزيع المكتبة العلمية

يباع في عموم افريقيا : محمد خوجه - تونس

في العراق : محمود حلبي - بغداد